رثاء الأم لدى أبي فراس الحمداني

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

خلاصة— هذا الموضوع يتناول مقاطع من رثاء أبي فراس الحمداني لأمه، وهو من شعراء القرن الرابع الهجري.

الكلمات المفتاحية: أبو فراس الحمداني، الرثاء، القرن الرابع، الشام، المراثي، البكاء، حلب.

I. *المقدمة*

رثى أبو فراس الحمداني والدته رثاء مؤثرا أثناء أسره ببلاد الروم، وقد عبر عن مشاعر الحزن المضاعف لديه؛ حزن الأسر، وحزن الفقد، ولم يخل رثائه من حكمة وموعظة وعبرة.

II. موضوع المقالة

إذا انتقلنا إلى شاعر آخر من شعراء الشام في القرن الرابع الهجري وهو أبو فراس الحمداني فسوف نجد أنه رثى كذلك أمه بقصيدة متميزة في أدائها، متدفقة في مشاعرها. وإذا كانت قصيدة الصنوبري السابقة من أقدم ما وصلنا من رثاء الأمهات - وهو جزء من خصوصيتها - فإن قصيدة أبي فراس لها خصوصيتها أيضا، حيث قالها الشاعر وهو يعاني جراحا عدة؛ جرح الأسر وما تبعه من حبس لدى الروم وبعد عن أمه، وجرح الفقد حيث ماتت أمه وهو بعيد عنها، ويمكننا أن نضيف جرحًا آخر وهو تباطؤ أميره وابن عمه سيف الدولة في دفع الفدية لتخليصه من ربقة الأسر. يقول أبو فراس:

أَيَا أُمَّ الأَسِيرِ سَقَاكِ غَيثٌ بِكُرهٍ مِنْكِ مَا لَقِيَ الأَسِيرُ

أَيَا أُمَّ الأَسِيرِ سَقَاكِ غَيثٌ تَحَيَّرَ لا يُقِيمُ ولا يَسِيرُ

أَيَا أُمَّ الأَسِيرِ سَقَاكِ غَيثٌ إلى مَنْ بِالفِدَا يَأتِي البَشِيرُ[1]

في قصيدة الصنوبري السابقة نجد أنه دعا للثرى الذي فيه أمه أن تبكيه مزنة ويمثل هذا البكاء فكرة "السقيا" التي تتردد كثيرا في شعر الرثاء، لكن دعاءه جاء في نهاية قصيدته "البيت قبل الأخير" وربما كان هذا الدعاء - والدعاء بصفة عامة - مناسبا أن يختم به الشاعر قصيدة من قصائد الرثاء طالما كان موظفا توظيفا جميلا. أما أبو فراس فقد كان دعاؤه لأمه بالسقيا في بداية قصيدته واستغرق ثلاثة أبيات من مقدمتها، وهذا ربما يكون ذا مدلول نفسي في الدرجة الأولى؛ حيث إن الفراق المزدوج؛ فراق الأسر وفراق الموت، أصاب الشاعر بالأسى، وأمه بالحسرة التي كانت - على ما يرى - سببا في موتها، فأكثر شيء تحتاجه هذه الأم التي ماتت ملتاعة محترقة على ابنها هو ما يطفئ هذا الاحتراق وتلك اللوعة في قبرها، فكان الدعاء بالسقيا، وفي تكرار الشطر الأول "أيا أم الأسير سقاك غيث" ما يدعم هذا الافتراض.

---

(١)ديوان أبي فراس "رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه" (دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت – سنة ١٤١٣هـ. ١٩٨٣م) ص ١٦٢.

وإذا كان الصنوبري جعل بكاء المزن/السقيا للثرى الذي به أمه فإن أبا فراس جعل السقيا لأمه مباشرة "سقاك غيث"، وهذا الدعاء لها دون الثرى أو القبر مما يدعم الدلالة النفسية للأبيات، وكذلك مدلول كلمة (غيث) وما فيها من الإيحاء بالإغاثة والإنقاذ.

وبعد هذه النداءات المؤثرة المتكررة يذكر لنا الشاعر صفة جوهرية من صفات الأم الصالحة وهي الدعاء للابن، فهذه الأم بدافع من فطرتها وعاطفتها تدعو له في كل حين، ويشتد الدعاء واللجوء إلى الله إذا كان هذا الابن في حال يحتمل أن يتعرض فيها لخطر، ويأسى الشاعر لأنه فقد بموتها هذا الدعاء:

إِذَا ابْنُكِ سَارَ فِي بَرٍّ وبَحْرٍ فَمَنْ يَدعُو لَهُ أو يَسْتَجِيرُ؟

ومثلما شارك الصنوبري أمه في مرضها واحتضارها وتوحد معها في شعورها بالألم، فإن أبا فراس يتوحد مع أمه في إحساسه بالوحشة بعد موتها، فهو يحرم على نفسه أن ينعم بالراحة، ويرى إلمام السرور به لؤما، ويسوِّغ ذلك بأن أمه ذاقت المنايا والرزايا وأصبحت في دار غريبة عنها، لا ولد يخفف ما بها أو زوج يؤنسها، فكيف يقبل أن يتقلب في النعيم والسرور وهي في حال كتلك؟!

حَرَامٌ أَنْ يَبِيتَ قَرِيرَ عَينٍ وأُمٌّ أَنْ يُلِمَّ بِهِ السُّرُورُ

وَقَدْ ذُقْتِ المَنَايَا والرَّزَايَا ولا وَلَدٌ لَدَيكِ ولا عَشِيرُ

وغَابَ حَبِيبُ قَلْبِكِ عَنْ مَكَانٍ مَلائِكَةُ السَّمَاءِ بِهِ حُضُورُ

ويعدد الشاعر الكثير من الصفات التي تميزت بها أمه، وهي في مجملها تدلنا على صلاحها وتقواها؛ فأمه صَوَّامة مُصابرة على الطاعة، وتتضح هذه المصابرة إذا كان هذا الصيام وقت الهجير والحر الشديد:

لِيَبْكِكِ كُلُّ يَومٍ صُمْتِ فِيهِ مُصَابِرَةً وقَدْ حَمِيَ الهَجِيرُ

وأمه قوَّامة لله، تطيل من الوقوف بين يديه إلى طلوع الفجر:

لِيَبْكِكِ كُلُّ لَيلٍ قُمْتِ فِيهِ إلى أَنْ يَبْتَدِي الفَجْرُ المُنِيرُ

وأمه من بيت عز وسؤدد، وهي شجاعة تتخلق بالأخلاق العربية الأصيلة من إجارة للمستجير ونجدة للمستنجد على الرغم من قلة المجير:

لِيَبْكِكِ كُلُّ مُضْطَهَدٍ مَخُوفٍ أَجَرْتِيهِ وقَدْ قَلَّ المُجِيرُ

وهي كريمة متصدقة تعطف على المساكين الفقراء وتغيثهم:

لِيَبْكِكِ كُلُّ مِسْكِينٍ فَقِيرٍ أَغَثْتِيهِ وما فِي العَظْمِ رِيرُ

عدد الشاعر لأمه من صفات التقوى والصلاح والعز والمنعة الكثير، ولا يوجد من يبكي على مثل هذه الأم أفضل من تلك الأعمال التي كانت طاعة لله وإرضاءً له.

وينادي الشاعر أمه نداءات متتالية أشبه بالصرخات والآهات:

أَيَا أُمَّاهُ كَمْ هَمٍّ طَوِيلٍ مَضَى بِكِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ نَصِيرُ

فهذه الأم الصلبة القوية الصوامة القوامة التي تجير الناس وتعينهم ـ كما مر وصف الشاعر لها ـ أثقلتها كثرة الهموم التي لم يكن لها منها نصير أو مجير، وليس أنكى عليها من أسر الابن وبُعده، وربما قصد أبو فراس بقوله: "لم يكن منه نصير" التعريض بابن عمه سيف الدولة الحمداني الذي تراخى في فدائه، محملا إياه جانبا من المسؤولية عن موت أمه بالحسرة والهم. ومما يدعم ذلك أن أم أبي فراس

ذهبت من مَنْبِجَ إلى حلب تكلم سيف الدولة في مفاداته فردها خائبة، فبعث إليه أبو فراس قصيدة طويلة مطلعها:

يا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُهَا آخِرُهَا مُزْعِجٌ وأَوَّلُهَا[٢]

وفيها يذكر أمه:

عَلِيلَةٌ بالشَّآمِ مُفْرَدَةٌ بَاتَ بِأَيدِي العِدَا مُعَلِّلُهَا

تُمْسِكُ أَحْشَاءَهَا عَلَى حُرَقٍ تُطْفِئُهَا والهُمُومُ تُشْعِلُهَا

إِذَا اطْمَأَنَّتْ،وأَينَ؟؛ أو هَدَأَتْ عَنَّتْ لَهَا ذُكْرَةٌ تُقَلْقِلُهَا

ثم يعاتب سيف الدولة على رده لها دون قضاء طلبتها:

جَاءَتْكَ تَمْتَاحُ رَدَّ وَاحِدِهَا يَنْتَظِرُ النَّاسُ كَيفَ تُقْفِلُهَا

سَمَحْتَ مِنِّي بِمُهجَةٍ كَرُمَتْ أَنْتَ عَلَى يَأْسِهَا مُؤَمِّلُهَا

إِنْ كُنْتَ لَمْ تَبْذُلِ الفِدَاءَ لَهَا فَلَمْ أَزَلْ فِي رِضَاكَ أَبْذُلُهَا

ومن الشطر: "جاءتك تمتاح رد واحدها" نفهم أن أبا فراس كان وحيد أمه "ولعلها لم تأت بغيره"[٣]، وربما كان ذلك سببا في العلاقة الوطيدة جدا بين الشاعر وأمه خصوصا أنه فقد والده صغيرًا، وتولت هي رعايته وتعليمه وتربيته أفضل تربية.

(٢)ديوان أبي فراس - ص ٢٤١.

ويعود بنا الشاعر في رثائه لأمه إلى تعداد أوصافها في إطار النداء " أيا أماه"، ويُبْرِزُ لنا صفة أخرى من صفاتها الخلقية، وهي الأمانة على الأسرار، حتى إنها ماتت وقد دفنت معها تلك الأسرار:

أَيَا أُمَّاهُ كَمْ سِرٍّ مَصُونٍ بِقَلْبِكِ مَاتَ لَيسَ لَهُ ظُهُورُ

ثم يتحدث ثانية عن أسره وبعده عن أمه وكيف أن البشريات الكثيرة كانت تأتيها بقرب فكاكه ووصوله إليها لكن حال دون ذلك قصر عمرها:

أَيَا أُمَّاهُ كَمْ بُشْرَى بِقُرْبِي أَتَتْكِ ودُونَهَا الأَجَلُ القَصِيرُ

وتشتد حيرة الشاعر، وتتعاظم في نفسه مشاعر الفقد، فأمه - وكل أم طيبة - قيمة عظيمة لا يحل محلها أي شيء؛ لذلك فإن الخسارة جدّ فادحة، فإلى من سيشتكي وقد كانت أمه بلسم شكواه؟! ومن سيناجي إذا ضاق صدره بما فيه وقد كانت أمه متنفس نجواه؟! ومن سيدعو له وقد كان دعاء أمه طوقه للنجاة؟! وبأي ضياء وجهٍ يستضيء وقد كان وجه أمه ضياه؟! وبمن يستدفع البلايا المقدرة بعد أن ذهبت أمه المباركة الصالحة؟! وبمن يستفتح الأمر العسير وتتيسر الأمور؟!

إلى مَنْ أَشْتَكِي؟ وَلِمَنْ أُنَاجِي إذا ضَاقَتْ بِمَا فِيهَا الصُّدُورُ؟

بِأَيِّ دُعَاءِ دَاعِيةٍ أُوَقَّى؟ بِأَيِّ ضِيَاءِ وَجْهٍ أَسْتَنِيرُ؟

بِمَنْ يُسْتَدْفَعُ القَدَرُ المُوَقَّى؟ بِمَنْ يُسْتَفْتَحُ الأَمْرُ العَسِيرُ؟

(٣)شاعر بني حمدان – د. أحمد أحمد بدوي – ط٢ (مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة - ١٩٥٢م) ص ١٩.

فالشاعر إذن لا يجد بديلاً لذلك الحضن الدفيء والحصن الأمين ـ أمه ـ لأن كل تلك الصفات لا تتوافر إلا فيها.

ثم يعود ليعزي نفسه ويصبرها ويسليها، فهو عما قليل سيلقاها في دارها التي صارت إليها:

نُسَلِّى عَنْكِ أَنَّا عَنْ قَلِيلٍ إلى مَا صِرْتِ فِي الأُخْرَى نَصِيرُ